الأدب في سير الأعلام :

ملتن ...

للأستاذ محمود الخفيف

— ١٠ —

تابع لمسرحية كومس الفنائية :

وما إن تم العذراء أغنيتها حتى يبدو كومَسْ ، وقد طرب لهذه الأغنية وعجب كيف ينبعث مثل هذا اللحن من صدر أحد بني الفناء ، وما يذكر أنه سمع لحنا مثله حتى ولا ذلك الذي كانت تغنيه أمه مع عذارى البحر فتسحر الملاحين به عن أنفسهم ، وتغرق سفنهم ؛ ويتقدم الساحر من الفتاة فيسألها من تكون فما يمكن أن يكون مثلها ممن ينتمون إلى هذه الغابة إلا أن تكون هي إلهتها ، فهي تقيم فيها مع بان إله الرعاة أو سلفان إله الغاب ، وترد الفتاة عليه وقد تمثل لها راعياً عليه سيماء الورع والهدوء قائلة إنها ماغنت فحورة بلحنها ، إنما تستميل (إكو) عليها ترد عليها من مخبئها . ويسألها الراعي ماذا أضلها ، فتجيب بأنه الظلام وهذه المتاهات الملتفة الأوراق ؛ فيستغربها أكان تركها بسبب عدم الوفاء أم بسبب الجفاء ؟ فتقول إنما كان ذلك ليبحثا في الوادي عن نبع سائغ برود . ويعجب الراعي كيف يتركانها على ضعفها وليس معها من يحميها ، فتجيب أنهما أزمعا أن يعودا على عجل ويقول ربما كان الغائق الظلام ، فتجيب بقولها ما أسهل الحدس عليها وهي فيما هي فيه من تعس ؛ ويسألها الراعي أيكون فقدهم أم عندها مما هي فيه من حاجة إلى معين ، فتنبئه أنهما أخواها ويستفهمها أوصافهما ، فما تجيبه حتى يقول إنه رأى اثنين كما وصفت عند تل قريب ، وأنه أكبرهما أن يكونا من بني الإنسان وحسبهما من تلك الخلائق السماوية التي تعيش في ألوان قوس النهام وتلعب فوق السحب المشتبك بعضها ببعض ، وقد أخذه خوف منهما فصلى إذ مر بهما ، فان كان هذان من تبحث عنهم فان رحلة أشبه بالارتحال إلى السموات تصل بها إليهما .

وتسأله الفتاة عن أقرب السبل إلى ذلك فيقول إنه يقع صوب الغرب من أجمة أشار إليها ؛ وتبدي الفتاة خوفها وقلة حيلتها ، فأن التنقل في الغابة فيما يرسله النجم من ضوء قليل أمر يشق على أمهر هداة السبيل . ويعرض الراعي عليها أن يهديها أو أن يسير بها إلى كوخ متواضع ولكنه أمين ؛ وتقبل الفتاة ما يعرض قائلة إن الرفق الذي يبديه إنما يوجد في الأكواخ المسقوفة بتلك الأخشاب المسودة بالدخان أكثر مما يوجد في الأبهاء المزدانة من قصور الأمراء ؛ ثم تتجه إلى السماء مستعيذة ، وتسترد بصرها ملتفتة إلى الراعي قائلة : دونك أيها الراعي فاهدني السبيل ...

ويظهر على المسرح بعد ذلك الأخوان فيناجي أكبرهما القمر والنجوم مستعيذاً بنورها ، أو متلهفاً إن لم تجبه الكواكب إلى بصيص من الضوء ينبعث من كوخ . ويقول الآخر إنه يرهف سمعه علّه يصيب صوت قطيع ينبعث من حظيرة أو زمارة راع أو صياح ديك بعد ساعات الليل ؛ ثم يعلن أسفه على أخته العذراء الضعيفة ويتساءل ترى أين أنت يا أختاه ! ربما كنت مستلقية على ضفة باردة رطبة أو مسندة جسمك الواهن من الحزن والخوف إلى جذع خشن ، وقد نال منك الجوع والحر . ويعود أكبر الأخوين فيدعو أخاه إلى الهدوء والصبر ، ويقول له إنه لا يخلق بالمرء أن يقدر السوء وأن يستعجل بالشر ، وأنه لا يظن أن الخطر أحدق بأخته فثلها من لا يزال هدوءها الظلام والسكون لأنها معتصمة بالفضيلة . ويسترسل الأخ الأكبر في امتداح العزلة ، ويذكر كيف تريش الحكمة فيها جناحيها بالتأمل ، ويقول إن

من يحمل بين جنبيه نفساً مضيئة يستمتع بالنور وإن كان فى قاع الظلمة ، وإن من ينطوى على نفس مظلمة وأفكارسوء فانه يكون فى مثل حلكة الليل ، وإن مشى فى شمس الظهيرة فهو من نفسه فى جب . ويلوح أن ملتن يشير هنا على لسان المتكلم إلى عزلته هو فى هورتون وطلبه الحكمة والمعرفة لتستضئ بهما نفسه .

ويرد أصغر الأخوين بقوله إن الزاهد لا يمسه فى عزلته أحد ولا يطمع فى توافهه أحد ، ولا يريد رأسه الأشيب أحد بسوء ، ولكن أحرى بالجمال وهو أشبه بشجرة التفاح الذهبى أن يقوم على حراسته تنين . وكيف يطمئن قلبك على عذراء لا حول لها تخبط فى ظلام الغابة ؟ إنك إذن كمن يلقى بكنز يخيل لدى باب أحد اللصوص ثم يطمئن على سلامته . وما أخشى على أختنا من الظلام والوحشة وإنما أخشى مما يجرانه عليها من اعتداء وقاح تطمعه وحدتها .

ويعود أكبرهما فيذكر لأخيه أنه لا يتكلم عن سلامة أختهما كلام الواثق ، ولكنه إن وجد نفسه بين الخوف والأمل فانه يفضل أن يميل إلى الأمل . ثم يقول إن أخته ليست كما يتصور أخوه لا حول لها قط ، فان لديها قوة خفية لا يتذكرها أخوه ، ويسأله أخوه متعجباً ما تلك القوة إلا إذا كان يقصد قوة الله ، فيجيب إنه يقصد قوة الله إلى جانب قوة أخرى وهبها الله إياها فصارت قوتها هى ، ويعنى بها العفة . ثم يستطرد قائلا العفة يا أخى العفة ، ويقرر أن من تتدرع بها لا تخاف شيئاً ولن يستطيع أن يلطخ طهرها أحد . ويسأل أخاه أيؤمن بهذا الذى يقول ؟ فان كان لا يؤمن به فانه يعيد على سمعه ما ذكره الأقدمون من الأغريق عن قوة العفة ؛ ويذكره بقصة ديانا آلهة القمر والصيد وقوسها وسهامها وعفتها التى هابها الآلهة والملوك .

ثم يذكر مينرفا آلهة الحكمة ، وما كانت مينرفا تحول إلى مثل الحجارة الباردة إلا بنظراتها الناطقة بقوة العفة ، ويسترسل فى قوله فيذكر أن النفس إذا اعتنقت العفة فى إخلاص ، أحيطت بألف من الملائكة يدرأون عنها كل ما هو بسبب من الذنب والخطيئة ، ويصلونها بالسماء فتسمع ما لا تسمع غيرها من الآذان . وفى هذا الموضع من القنائية يطنب « ملتن » على لسان أحد الأخوين فى بيان فضل العفة كما امتدح من قبل العزلة وطلب الحكمة .

ويطرق سمع الأخوين صوت فينصتان ويقدران أنه إما أن يكون صوت ضال مثلهما أوصوت لص يدعومنسره ؛ ويسأل الله أصغرهما لأختهما السلامة والنجاة ، ويتأهب أكبرهما للدفاع ، ويستنجد السماء له ولأخيه ...

ويظهر عقب ذلك الروح الحارس فى زى أحد الرعاة فيظنه الأخوان راعياً يعرفانه من رعاة أبيهما ، ويسألانه ما خطبه ، وهل فقد من غنمه شيئاً ، فهو يبحث عنه ، ويجيبهما أن الأمر أخطر مما يظنان ، ثم يسأل عن أختهما فينبآنه أنهما تركاها قليلا وعادا فلم يجداها ، فيطلعهما على مخاوفه وهواجسه ، فيسألانه أن يفصح فيقص عليهما ما علمه عن كومَس وقبيله ومابرع فيه من السحر ، ويصف ما يبعثون فى الغابة من جلبة وضوضاء ، ثم يقول : قد سمعت أغنية حلوة يرتفع بها صوت رقيق ملؤه الخشوع يسرى فوق متن الهواء كما تسرى نفحات المطر المقطر ، صوت بات الصمت ذاته حياله كالمأخوذ عن نفسه ، حتى لقد ود لو أنكر ذاتيته وذهب إلى غير عودة إذا كان صوت كهذا يحل محله ... وأرهفت أذنى أستمع فتبينت أنه صوت سيدتى أختكما الحبيبة ، فمضيت لتوى صوب الصوت ولكنى ألفيت ذلك الساحر اللعين قد أدركها قبل أن أصل وظهر لها فى لباس قروى وهى تسأله عن اثنين تاها فى ظلمات الغابة ؛ فاستخلصت أنها تسأل عنكما فخففت أبحث فى الغابة حتى لقيتكما هنا ، ولست أعلم ما ذا كان من أمر الفتاة بعد ذلك .

ويجزع أصغر الأخوين مشفقا على أخته ؛ أما أكبرهما فيظل على يقينه وثقته فى الفضيلة والاعتصام بها ، فقد تهاجم الفضيلة ولكنها لا تغلب ، وتباغتها القوة الظالمة ولكنها لا تزعزعها ؛ وأن ما يريده السوء من خطر جسيم يصبح إذا امتحنت به الفضيلة أعظم دواعى الفخر . ولا بد من أن يرتد الشر فينطوى على نفسه فهو من نفسه ينبت ثم إنه يأكل نفسه . ويعلن الفتى عزمه على مقاتلة ذلك الساحر حتى يرد ما اقتنص وهو صاغر أو يجره من ذوائبه إلى ميتة كريهة فيذهب لعيناً كما لعنت حياته ؛ ولكن الروح الحارس أو الراعى يرد عليه بأن شجاعته هذه وإن كان يكبرها لن تجدى عنه شيئاً فذلك الساحر قادر على أن يشل بسحره مفاصله ويتلف كل عضلة فى جسمه ؛ ويتعجب الفتى

ويسأله كيف تجرؤ إذن على أن يدنو من الساحر كما فعل ؟ فيظهره الراعى على سر ، وذلك أن صنفاً من الرعاة دله على نبات يكشف السحر ويأمن به من غوائل السحرة ويفرح بذلك الإخوان ، ويعتزمان لقاء الساحر وكسر زجاجته وقهره .

ويتغير المنظر على المسرح ، فإذا بجانب من قصر عظيم يتبدى للأعين وقد صفت فيه الوسائد المغطاة بالأقمشة الموشاة ، وزخر بأنماط الزينة وترقرق فيه لحن موسيقى هادئ . وتجلس العذراء على كرسى مسحور ، ويظهر كومس وقبيله فيمد إليها يده بكأس ، فتأخذها ولكنها تضعها جانباً وتهم بالوقوف ، فيأمرها الساحر أن تجلس ، فانه إن هز عصاه أحالها إلى تمثال من المرمر أو صنع بها كما صنع أبولو[1] بدافنى ؛ وترد العذراء عليه مغضبة بقولها لا تفخر أيها الأحمق ، إنك إن استطعت أن تسيطر بسحرك على جسمى فلن تنال من حرية عقلى بكل ما أوتيت من السحر .

ويترفق الساحر فى قوله ، ويحاول إغراءها بأن تشرب من كأسه ، وألا تغضب ، وأن تنفى عن نفسها الهم ، ففى ذلك القصر لا يعرف الحزن ؛ وهذا الشراب الذى تحتويه الكأس يملأ النفس حبوراً وقوة وشباباً . ولن يبلغ مبلغه فى هذا السبيل ذلك الشراب الذى أعطته فى مصر زوجة ثون لهيلينا[2] ابنة جوف ؛ وما أحوج العذراء إليه كما يحتاج كل امرئ إلى ما ينعشه بعد النصب ويريحه بعد العناء ، وقد مسها التعب والجوع ، وهذا الشراب يدرأ عنها ذلك جميعاً ، وتصيح به الفتاة : إنه لن يغمل أيها الكذوب الخائن ، وإنه لن يرد إلى لسانك ما نفيته عنه بكذبك من الصدق والأمانة . أهذا هو الكوخ الأمين الذى حدثتنى عنه ؟ وماهذه الأشباح المنكرة التى أرى ؟ هذه الشياطين القبيحة الرؤوس ! يا رحمة الله احرسينى ... اذهب عنى بسحرك أيها الساحر البغيض ، لو كان ماتقدمه لى كأساً من شراب جونو[3] الذى تشربه إذ تطعم على مائدتها ما تناولته من يدك الخائنة إنه لن يعطى الطيبات من الأشياء إلا الطيبون ، ولن تسيء الخبيث نفس عاقلة تضبطها الحكمة .

ويعلن كومس عجبه من حماقة بنى الإنسان وتصديقهم كلام الفلاسفة فى القناعة والزهد ؛ ولم تخرج الطبيعة إذن كنوزها وثمارها وزينتها إن لم يك ذلك لتدخل بها السرور على الأنفس المتطلعة إلى كل معجب جميل ، وما غناء الحرير والذهب الذى يعبده الناس جميعاً وغيرهما من الجواهر ؟ إن الإنسان إذا قنع بالتافه من الطعام والشراب والخشن من الثياب لم يعرف أنعم الله ولم يشكره ؛ وأين تذهب تلك الأنعم إذا تراكمت بعضها فوق بعض لزهد الناس فيها ؟ ويهيب الساحر بالعذراء ألا تخدع نفسها بتلك الكلمة الجوفاء ألا وهى العفاف ؛ فان الجمال لا يكنز وإنما يجب أن تتناوله الأيدى ؛ وإذا تصرمت الأيام ذوى كما تذوى الوردة فى عودها . والجمال نخار الطبيعة ، ولذلك يجب أن يمتاز فى القصور والولائم وعظيم الحفلات حيث يتدبر الناس فى عجيب صنعه ؛ ويختم الساحر كلامه بأن يدعو الفتاة إلى التفكر فيما يقول فهى فى زمن الشباب ...

وترد عليه العذراء قائلة : ما تصورت من قبل أن تنفرج شفتاى بالكلام فى جو كريه كهذا الجو ، ولكن ما الحيلة وهذا الساحر يدلس على الرأى ويظن أنه قادر على أن يسحر فكرى كما سحر عينى فيأتى بكلام زائف يلبسه لباس العقل ؛ وإنى لأكره أن تتمكن الرذيلة من أن تدلى بحججها ولا يكون للفضيلة لسان يصد تبجحها . أيها المخادع لا تتهم الطبيعة البريئة كما لو كانت تريد أن تبث فى قلوب بنيها الزهو والخيلاء بما تفيض عليهم من كنوزها . إنها ما تخرج خيراتها إلا للطيبين الذين يعيشون وفق قوانينها الحكيمة ، ويسيرون حسب ما يقتضيه الاعتدال . ولئن أتيح لكل رجل ممن أضنتهم الفاقة قدر بسيط لائق به مما جعلته الأبهة والترف ركاماً بعضها فوق بعض فى أيد قليلة ، فإن أنعم الطبيعة بذلك توزع فى عدالة ، وعندئذ فلا تتلف فى خزائنها ، وعلى ذلك يكون شكر المتفضل المنعم قد أدته كل نفس . ألا إن النهم لا يتجه إلى السماء ومن حوله ما تمتلىء به مائدته الفخمة ، ولكنه يضيف إلى نهمه كفرانه بالنعمة ، ذلك

---

(١) آتب أبولو إله الشعر والموسيقى هذه العذراء وتبعها فلما لم تمل إليه أحالها إلى شجرة من شجرة الغار .

(٢) جاء فى الأوذيسة أن هيلينا ابنة زيوس (جوف) وزوجة مينالوس الأسبرطي وصفت لزائرى زوجها هذا الشراب الذى يملأ النفس سرورا وقوة وكانت أعطتها إياه فى مصر بوليدامنا زوجة ثون .

(٣) جونو زوجة جوبتر أو زيوس كبير الآلهة وملكة السماء .